حِبر أبيَض
WHITE INK

أ.د. حياة الرشيدي

كتابات الزمان لتفخيم سيرة الفاتح المغوار

ولد محمد الثاني في 26 رجب من عام 833هـ/20 نيسان من عام 1429م ، وهو ابن السلطان مراد الثاني ، وسابع سلاطين العثمانيين . أصبح سلطاناً وفي ذلك لغط كثير في عام 855هـ/1451م .

الحدث الأشـــهر والأغلب الذي اشتهر عنه هو الفتح وربطه بالبشـــارة النبوية على صاحبها أفضل صلاة واتم تسليم.

من الكتابات الغريبة التي كُبت عن أســـباب فتح مدينة القسطنطينية ، وان كانت كذلك هي حالة المدينة ووصفها بأسواء ما يمكن وصفه ، ليتسنى للفاتح أن يكون المنقذ لها ومن تلك الكتابات ، ان حالة القسطنطينية في ذلك العهد – يقصد قبل الفتح – سيئة جداً فقد تكاثر الأعداء جولها – وهذا ســـبب لا غبار عليه – ولكن يقول الكاتب علي حســـون : " واســـتنزفت قوتها في الترف وبناء القصور الضخمة والكنائس العظيمة ". ويعلل لذلك القول بقوله : " ولعل ذلك من باب التعويض عن النقص الذي يعاني منه الضعيف الجاهل كي يقوم بالإيهام والتغطية على فشـــله كما يحدث ويتكرر في كثير من العهود". كيف يمكن أن تكون تلك أســـباب جعلت من المدينة الموعودة بالفتح العثماني أن تكون تلك عيوب وأسباب ضعف ؟

لماذا تســـابق سلاطين بنـــو عثمان على أن يبنوا القصور والحدائـــق ، وان تكون عجيبة من العجائب مبانيهم ؟ هل كانت من أسباب ضعفهم ؟

ولماذا حافظوا عليها ، واستفادوا منها على مر العصور مادياً ؟

ونسي أن سليم الأول اصطحب من القاهرة أمهر الصناع وما يتبع ذلك لبناء مدينة تضاهي القاهرة وحضارة الفاطميين .

ويعـــود ليكتب مؤكداً أن الذي أضعفها النزاع الداخلـــي والافلاس الذي أصابها نتيجة الترف والتعلق بالمظاهر من العظمة والأبهة والســـلطان إبان مدة الضعـــف ، واقتطاع جيرانها الأرض تلو الأخرى من بلادها مقابل بعض المال لتعويض عجزها المالي .

تلك الأســـباب لم يتعرض لها عند ذكره نهاية الدولة العثمانية ، وكانت كتابته ترتكز على أن الخلافة الإسلامية هُدمت ، وأن ازالتها كان ســـريعاً لوقوف العرب ضدهم بعد أن غُرر بهم . لم يتعرض لمظاهـــر الأبهة التي تركهـــا الأتراك ولا زالت باقية والمحافظة عليها جـــيلاً بعد جيل ، وما تحققه من مكاسب مادية من قطاع السياحة من الأدلة التي لا يمكن تجاهلها .

كتـــب كذلك أن المخترع المجري عرض علـــى ملوك أوروبا اختراعه فلـــم يلتفت اليه أحد ، فعرضـــه على الفاتح وقال : " الـــذي كان العلم والعلمـــاء فبالغ في حفاوته وكان ســـخيا معه فقام بتصميم المدافع الضخمة ". يُفضل عدم التعليق وللقارئ تحليل ذلك الخبر وحيثياته .

ويقول :" ..ثم توجه الفاتح الى كنيسة أيا صوفيا وسجد شكرا لله مرة ثانية – لأن الأولى كانت عنـــد دخول المدينة – وأمـــر بتحويلها الى مســـجد وأدى صلاة العصر فيها وأعلـــن بعض من الروم اسلامهم ". غرائب في أسلوب رواية الأحداث والفخر بالصلاة داخل الكنيسة التي في كل أركانها مدلولا لات المسيحية ، ان كان عالماً ويعرف التاريخ ، هل من المعقول لم يمر على مسامعه موقف الخليفة الراقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين تسلم مفاتيح بيت المقدس ، واحترامه لمقدسات الآخر .

وغيره الكثير ممن كتبوا وعلقوا ومجدوا ، ولكن بقراءة سريعة واعية يتضح مضمون الكتابة وأهدافها .